

إشكالية تهجين المنهج السيميائي

عند عبد الملك مرتاض

أ. عبد الله بوقصة

جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف

مقدمة

إنَّ سيرورة التّقد عند عبد الملك مرتاض زاخرة بما يسمّى بـ"التعددية المنهجية". الأمر الذي تجذّر في خطابه النقدي انطلاقاً من تجواله بين المناهج النقدية في بحوثه ودراساته، بدايةً بالسياقية مروراً بالنسقية منتهياً إلى التركيب المنهجي المفتوح، أو ما يدعوه بـ"التهجين المنهجي" الذي دعا إليه بإلحاح في أكثر من مقام.

والإشكالية التي نطرحها في ورقتنا البحثية هذه تتعلق أساساً بـ"تهجين المنهج السيميائي من منظور عبد الملك مرتاض"، وهي إشكالية ثرية ومتشعبة الجوانب. وذلك من أجل وضعها في إطارها الملائم، والحكم عليها بمعطيات علمية تتسم بالموضوعية والدقّة. فعلى أية أسس معرفية يتمّ اختيار هذا المنهج وتجنب ذاك؟ وهل يختار الناقد منهجه أم تفرضه عليه طبيعة الموضوع؟ وكيف نلجم طغيان منهج على آخر؟

المنهج النقدي بين التدجين والتهجين

ينصرف لفظ "تدجين" إلى ملازمة البيت، والبقاء في الظلمة،⁽¹⁾ والانغلاق على الذات. بينما ينحدر لفظ "تهجين" من التركيب والخلط، فنقول هجيناً لمن أبوه عربي وأمه أعجمية⁽²⁾ مثلاً. كما أنّ مصطلح تهجين هو تركيب كائنين حيين من سلالتين مختلفتين، وهو مصطلح علمي وراثي محض له علاقة بالاستنساخ وما شابهه..

وعلى هذا فتدجين المنهج النقدي (Domestication des méthodes critiques)

هو عدم الخروج عن أطر المنهج النقدي الواحد أثناء تحليل العمل الأدبي، والالتزام بآليات هذا المنهج وتقنياته دون سواها.

أمّا تهجين المنهج النقدي (Hybridation des méthodes critiques) فهو جمع مناهج أخرى إلى المنهج المعتمد في تحليل النصوص والخطابات لضمان نتائج أحسن.

وحسب يوسف وغليسي، فإنّ مرتاض يحدّد معالم منهجه النقدي انطلاقاً من مجموعة نصوص ينقلها لنا برمتها⁽³⁾:

"لا يوجد منهج كامل، ومن التعصّب التمسك بتقنيات مذهب واحد على أساس أنّه وحده الأليق والأجدر أن يتّبع، وقد حضرنا محاضرة ألقاها الأستاذ محمود أمين العالم حول المنهج الاجتماعي فكان يتحدث فيها وكأنّه زعيم حزبي يدافع

(1) - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2003، ج 13، مادة (دجن)، ص: 147 وما بعدها.

(2) - ابن منظور، لسان العرب، ج 15، مادة (هجن)، ص: 431 وما بعدها.

(3) - يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، منشورات إبداع الجزائر، 2002، ص: 82.

بشراسة عن مبادئ حزبه أمام خصوم ألداء: كان الشيخ يهاجم فيها البنيوية صراحة وبشكل يدعو إلى الرثاء مع أنّ المسألة بسيطة على تعقيداتها..."

"... عهدنا بالمناهج التقليدية قصارها تناول النص من حيث مضمونه وهل هو نبيل أو غير نبيل، وتناول اللغة من حيث شكلها: وهل هي سليمة أو غير سليمة، قبل أن تصدر أحكاما قضائية صارمة على صاحب النص أو له،....، ولولا طائفة من النقاد الثوريين الذين رفضوا أن يظلّ النقد على ما أقامه عليه (تين، لونسون، بيف)، أقبلوا يبحثون في أمر هذا النص بشره علمي عجيب... لكان أمر النقد بعامه، ودراسة النص الأدبي بخاصة انتهيا إلى باب مغلق لا يفتح بأيّ مفتاح."

"أولى لنا أن ننشد منهجا شموليا ولا أقول منهجا تكامليا إذا لم نر أتفه من هذه الرؤية المغالطة التي تزعم أنّ الناقد يمكن أن يتناول النص الأدبي بمذاهب نقدية مختلفة في آن واحد، فمثل هذا المنهج مستحيل التطبيق علميا..."

"...نعالجها... دون أن نقع لا في فخ البنيويين الرافضين للإنسان والتاريخ والحقيقة والاجتماع إلاّ حقيقة اللغة الفنية من حيث هي سطح قبل كلّ شيء، ولا في فخ الماركسيين والاجتماعيين الذين يعلّلون كلّ شيء تعليلا طبقيًا، وربطه بالصراع بين البنية الفوقية والتحتية، ولا في فخ النفسانيين وهم الذين يودعون جهدهم لتفسير سلوك المبدع من خلال تفسير الإبداع، ولا في فخ الكلاسيكيين الانطباعيين المتعصبين الذين يتسلطون ظلما وعدوانا على المؤلف فيزعجون بالترهات طورا، ويطرونه بالمدح طورا، ويقذفونه بالتجريح والقذح طورا آخر، دون أن يتلقّوا أو يكادوا يلتفتون إلى النص وما فيه من ثروات المعرفة والجمال، ولو أراد هؤلاء مثلاً أن يتناولوا نصاً أدبيا شعبياً لتوقّف حمارهم في السهل قبل العقبة، ولعجزوا عن أيّ حركة إذا هم فرسان مضمارهم الوحيد المؤلف يقدحونه أو يمدحونه، فإن خرجوا عن هذا المضمار أصبحوا عجزة قاصرين..."

"...يلائمها منهج البنيوية التكوينية، إلا أننا نرى أن هذا المنهج المهجن لا يبرح لدى التطبيق غير دقيق المعالم، وأحسبه غير قادر على استيعاب كلّ جماليات النص وبُناه، حيث إنّه إذا جنح للبنيوية تتنازعه الاجتماعية، وإذا انزلق إلى الاجتماعية تنازعت البنيوية فيضيع بينهما ضياعا بعيدا"

"إنّ زواج الإيديولوجيا بنزعة فنية ثورية، قد لا يخلو بعض سلوكها المعرفي من العبثية، أمر مستعص حقا".

"أجل إنّ المنهج الإحصائي لا يخلو من مغالطة منهجية حيث يعمد إلى جملة من الألفاظ التي يصطنعها كاتب من الكتاب مثلاً، مجرّدة عن سياقها الدلالي... فيحصيها عددا في نص ما، ثمّ يبيّن على ضوء العدد الذي يتوصّل إليه حكما نقديا.."

وهكذا هو هاجس المنهج النقدي عند عبد الملك مرتاض، يشكّل له دوما قلقلًا معرفيًا، فهو يجرب في كلّ آن اتّجاهًا فكريًا ويأوي إليه، لكنّه سرعان ما ينفذ يديه منه، وقد عاين قصوره في سبر أغوار النص الأدبي. وقد فسّر الغلاة هذا التحوّل النقدي الصحيّ بالولع بكلّ جديد. ولكنّهم ما لبثوا أن وجدوا في ذلك ميزة للحياة والحيوية، والديمومة الفكرية. ولو عقد هؤلاء وأولئك مقارنة بين مرتاض وبارت (R.Barthes)، لوقفوا جميعا عند اتفاق الرجلين في الميزة سالفة الذكر، ولقالوا إنّّه لانفتاح للفكر الذي لا يجد حرجا في مراجعة ذاته، والانفلات من قيوده. فبارت مثلاً "يصرّ على إبقاء ذهنه في حركة دائبة، على أن لا يسمح لنظراته الثاقبة المتنوعة، ومشروعاته المختلفة لتفسير النصوص الأدبية، بأن تتجمّد في مذهب ثابت المعالم والحدود"⁽¹⁾. وهم يستبشرون لمثل هذه الشهادات، وهي تصف توترات

(1)- حبيب مونسي، فعل القراءة، النشأة والتحول، منشورات دار الغرب، وهران، 2002، ص: 28.

الباحث، وهوم التجوال الدائم، الذي يكشف على أنّ المنجز النقدي يبقى قاصرا على تفسير الظاهرة النصية وتأويلها.

عبد الملك مرتاض وإشكالية تهجين المنهج

أدى الزخم المعرفي الذي يصاحب مشروع عبد الملك مرتاض النقدي إلى عدم الاطمئنان لمنهج واحد في مقارنة نص أو تحليل خطاب، سرديا كان أو شعريا، لافتقار المنهج الأوحـد لتقنيات يسدّ بها متطلّبات النص الأدبي، حيث يرى أنّه "لا يوجد منهج كامل، مثاليّ، لا يأتيه النقص من بين يديه ولا من خلفه. فمن التعصب إذن التمسك بتقنيات منهج واحد على أساس أنّه الوحيد الجدير بأن يُتبع."⁽¹⁾ وانطلاقا من حتمية غياب الكمال عن أي منهج، فإننا لا نطمئن، من حيث المبدأ، إلى أي منهج إذن؛ ونجتهد، أثناء الممارسة التطبيقية، "أن نضيف ما استطعنا إضافته من أصالة الرؤية لمنح العمل الأدبي الذي ننجزه شيئا من الشرعية الإبداعية، وشيئا من الدفء الذاتي، معا..."⁽²⁾ وركحاً على هذا صار "تهجين أي منهج أمرا ضروريا لتكتمل أدواته، وليصبح أقدر على العطاء والرؤية"⁽³⁾.

ويعدّ عبد الملك مرتاض من أكثر النقاد تجوالا بين المناهج المتباينة الطرح، انطلاقا من المناهج السياقية مروراً بالمناهج التفسيرية منتها إلى التركيب المنهجي المفتوح والمنتشر، الذي دعا إليه باللاح في أكثر من مقام. إيماناً منه أنّ "التعددية المنهجية أصبحت تشيع الآن في بعض المدارس النقدية الغربية، ويرى أنّه لا حرج

(1)- ينظر مرتاض، عبد الملك: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، تحليل مستوياتي لقصيدة شناسيل ابنة الجلي، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001، ص: 18.

(2)- المرجع نفسه، ص: 19.

(3)- المرجع نفسه، ص: 21.

في التّهُوض بتجارب جديدة تمضي في هذا السبيل بعد التّخمة التي مُني بها النّقد من جرّاء ابتلاعه المذهب تلو المذهب خصوصا في هذا القرن.⁽¹⁾

وبذلك، فعبد الملك مرتاض يتجه نحو النّهج التّركيبي بوعي كامل أثناء مقارباته، والذي يختلف في آلياته عن الإجراء التّكاملي. كما عوّدنا في بعض درّاساته النّقدية المعاصرة، مبررا هذا الاتجاه كون التّيّارات النّقدية المعاصرة قد جنحت إلى "التّركيب المنهجي، وذلك عند قراءة نص أدبي ما، مع الاجتهاد في تجنيس هذه التّركيبات المنهجية خشية الوقوع في التّلفيقية"⁽²⁾. فنزّوعه إلى هذا التّركيب في مقارباته النّقدية هو دعوة صريحة إلى تبني قراءة احترافية؛ وهي "القراءة المركّبة المتعددة التي تنهض على جملة الإجراءات التّجريبية والتأمّلية والاستنباطية جميعا"⁽³⁾، والتي بقدر ما هي قائمة على التّباين (Allotopie)، تنهض أيضا على التّشاكل (Isotopie)، وعلى إثرها استطاع المزاجية بين "التّراث البلاغي القديم ومعطيات السّيميوطيقا الحديثة، ومقيّما لحوار نقدي ومعرفي بين ما أنجزه التّراث البلاغي واللّغوي والنّقدي العربي وبين تلك التّصورات والآليات الحديثة التي يقدّمها التّسق المعرفي الغربي"⁽⁴⁾.

(1)- مرتاض، عبد الملك: تحليل الخطاب السردى، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 06.

(2)- مرتاض، عبد الملك: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 09.

(3)- مرتاض، عبد الملك: في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النّقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص: 13.

(4)- عقاق، قادة: هاجس التّأصيل النقدي لدى عبد الملك مرتاض، بين وعي التراث وطموح الحداثة، ص:

تهجين المنهج السيميائي لدى عبد الملك مرتاض

ولكي يمنح مرتاض لطرحة سالف الذكر شرعيته المنهجية والعلمية، وفي محاولة منه ربط الحدائث بالتراثي، رأى أنّه "من المكابرة الزعم بأنّ المعاصرين اليوم، وحدهم، هم الذين اهتدوا السبيل إلى إشكالية القراءة السيميائية بكل إنجازاتها اللسانية ويتعدّد حقول تأويلاتها المستكشفة، والتي ليس لآفاقها حدود"⁽¹⁾. فقد تعاطى العرب كتابة حول النصّ الأدبي منذ القدم، يمكنها أن تشكّل إرهاصات للقراءة السيميائية "ومن ذلكم الشروح التي مورست حول مدوّنات شعرية أمثال الحماسين، ودواوين شهيرة أمثال ديوان أبي الطيب خصوصاً، ونصوص نثرية أمثال مقامات الحريري والهمداني"⁽²⁾.

ولعلّ ورود مصطلحات مختلفة كالطباق، والمقابلة، والطبيّ، والنشر، والجمع... التي تتضمّن معنى التشاكل الذي هو جزئية من جزئيات السيميائية هو دليل على أنّ البلاغيين العرب، قد حاموا حول هذا المنهج السيميائي لكنّ بجهودهم الفردية، وقصور أدواتهم اللسانية لم يقعوا عليها كما وقع عليها غريماس (Greimas) وأمثاله⁽³⁾. فمن خلال المفاهيم والمصطلحات الغربية التي استوعبها مرتاض وتلك المناعة التقديمية التراثية التي استلهمها استطاع خلق القراءة المركّبة ليسبر بواسطتها أغوار النصّ كاشفاً عن جملة المركّبات اللسانية والإيديولوجية والجمالية والنفسية بوعي أكبر على سبيل تعدد المستويات⁽⁴⁾.

(1)- مرتاض، عبد الملك: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 07.

(2)- مرتاض، عبد الملك: شعرية القصيدة قصيدة القراءة، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، ص: 08.

(3)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 33.

(4)- ينظر: مرتاض، عبد الملك: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 09.

فهو لم يتعامل مع المناهج الغربية بروح آلية عمياء، بل كان يطعمها دوماً بذوق تراثي، ويهجن الغربي بالعربي. فهو ينهل من الجاحظ (255هـ)، وابن سينا (428هـ) وابن خلدون (808هـ)، بقدر ما ينهل من غريغاس وكورتيس وبريمون وغيرهم، في محاولة منه الخروج بمنهج سيميائي عربي معاصر يتكئ على التراث من جهة ويمسك بكل ما هو حادثي من جهة أخرى.

جاء نفور مرتاض من أحادية المنهج النقدي أو أحادية المنظور القرائي المغلق إلى تعددية القراءة بغية إخصاب القراءة السيميائية وإثراء أدواتها المنهجية.

فهذا النزوع إلى التعددية القرائية، والجنوح نحو التركيب المنهجي، وهذا اليقين بأنّ النصّ الواحد "يجب أن يظلّ مفتوحاً إلى ما لا نهاية، وأنّ كلّ قارئ يمكن أن يقرأ من منظوره الخاص..."⁽¹⁾ يجد مظاهره من التراث العربي كون "العرب من الأمم التي تعاملت مع النصّ الأدبي على أساس من الانفتاحية والانتاجية منذ القدم؛ بحيث عهدناهم ينبشون نبشاً شديداً في تجاعيد بعض النصوص الأدبية الكبرى مثل ديوان المتنبي الذي وصلنا من الشروح التراثية له أكثر من ثلاثين شرحاً، أو قراءة، كما ينسحب ذلك أيضاً على مقامات الحريري التي تصدّى الشراح لشرحها فجاوزوا حدّ المؤلف والمعتاد"⁽²⁾، ومن ذلك نجد القراء يقتربون من النصّ ساعين إلى التوسّع، والتعمّق، مستندين على جملة الآليات التي يختزنونها في وعيهم وفي لا شعورهم، مفجرين مردودية النصّ، فتغدو القراءة متعدّدة ومتجدّدة، وكلّ واحدة منها "تمثّل رؤية معيّنة، فهذه قراءة بنيوية، وتلك قراءة تفكيكية، وثالثة أسلوبيّة، وأخرى تنزع منزعا آخر قد يكون تداوليّاً، وهلم جرا... وعلى أنّه في طيّات كلّ قراءة- يمكن أن تعثر على قراءة أخرى فرعية قد تنتمي إلى ضربها، ولكنها تختلف

(1)- مرتاض، عبد الملك: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 15.

(2)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 16.

عنها، كما يقع ذلك في تأويل بيت ما من الأبيات الشعريّة من الوجهة النّحويّة"⁽¹⁾.

خاتمة

إنّ النقد الأدبي قديما كان أو حديثا أو معاصرا، يظلّ مقارنة تقترب من العمل الإبداعي أو تبتعد عنه، بينما مناهج التحليل تتعدّد وآليات المعالجة تتباين، الأمر الذي أدى بمرتاض إلى استحداث ما يسمّى بالتهجين القرائي أو التّركيب المنهجي المفتوح والمنشور في خطابه النّقدي، كي يسند به متطلبات النّص، كما عوّل كثيرا على تعدّدية القراءة وتجّددها، إحصابا لقراءته السّيميائية الغالبة على خطابه النقدي المعاصر.

أمّا مصادر مرتاض السيميائية فارتكزت على محورين الأول حدائي والثاني تراثي، ممّا ساعده على التعامل مع الثقافة الوافدة ببصيرة متفتحة وذوق أصيل. كما أنّ تجربة ثرية وخصبة، كتجربة عبد الملك مرتاض النقدية تحتاج المزيد من الدراسة والتمحيص، لما تحتويه من سبق في استيعاب المناهج المعاصرة برؤى علمية موضوعية تنفتح على الحداثة وتتكيى على التراث.

(1)- مرتاض، عبد الملك: المرجع السابق، ص: 17.

